

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٧ - سورة القدر

قال السيوطي: فيها قولان، والأكثر أنها مكية، وآياتها خمس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)
- [٢] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ)
- [٣] (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ)
- [٤] (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ)
- [٥] (سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ)

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » أى أنزلنا القرآن على قلب خاتم النبيين ، بمعنى ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر . وقد وصفت بالباركة في قوله تعالى ^(١) : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ) وكانت في رمضان ، لقوله تعالى ^(٢) (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ) .

قال الإمام : سميت ليلة القدر، إما بمعنى ليلة التقدير ، لأن الله تعالى ابتدأ فيها تقدير دينه وتحديد الخطة لنبيه في دعوة الناس إلى ما ينقذهم مما كانوا فيه . أو بمعنى العظمة والشرف ، من قولهم (فلان له قدر) أى له شرف وعظمة . لأن الله قد أعلى فيها منزلة نبيه وشرفه وعظمه بالرسالة، وقد جاء بما فيه الإشارة، بل التصريح، بأنها ليلة جليلة، بجلالة ما وقع فيها من إنزال القرآن . فقال «وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ» أى وما الذى يملك مبلغ شأنها ونباهة أمرها « لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ » فكرر ذكرها ثلاث مرات . ثم أتى بالاستفهام الدال

(١) [٤٤ / الدخان / ٣] . (٢) [٢ / البقرة / ١٨٥] .

على أن شرفها ليس مما تسهل إحاطة العلم به ، ثم قال (إنها خير من ألف شهر) لأنه قدمضى على الأمم آلاف من الشهور وهم يختبئون في ظلمات الضلال . فليلة يسطع فيها نور الهدى خير من ألف شهر من شهورهم الأولى . ولك أن تقف في التفضيل عند النص ، وتفوض الأمر ، في تحديد مافضلت عليه الليلة بألف شهر ، إلى الله تعالى . فهو الذى يعلم سبب ذلك ولم يبينه لنا ، ولك أن تجرى الكلام على عاداتهم في التخاطب . وذلك في الكتاب كثير . ومنه الاستفهام الواقع في هذه السورة (وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ) فإنه جار على عاداتهم في الخطاب . وإلا فالعلم الخبير لا يقع منه أن يستفهم عن شيء . فيكون التحديد بالآلف لافهم له ، بل الغرض منه التكثير . وإن أقل عدد تفضله هو ألف شهر . ثم إن درجات فضلها على هذا العدد غير محصورة . فإذا قلت (إخفاء الصدقة خير من إظهارها) لم تعين درجة الأفضلية . وهى درجات فوق درجات وقد جاء في الكتاب في واقعة واحدة ، هى واقعة بدر ، أن الله أمد المؤمنين بألف من الملائكة ، أو بثلاثة آلاف ، أو بخمسة آلاف ، كما تراه في الأنفال وآل عمران . فالمدد هناك لافهم له ، كما هو ظاهر . فهى ليلة خير من الدهر إن شاء الله . ثم استأنف لبيان بعض مزاياها فقال « تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا » يخبر جل شأنه أن أول عهد للنبي ﷺ بشهود الملائكة ، كان في تلك الليلة . تنزلت من عالمها الروحاني الذى لا يحده حد ولا يحيط به مقدار ، حتى تمثلت لبصره ﷺ ، والروح هو الذى يتمثل له مبلغاً للوحى ، وهو الذى سُمِّيَ في القرآن بجبريل . وإنما تظهر الملائكة والروح « بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » أى إنما تتجلى الملائكة على النفس الكاملة ، بعد أن هيأها الله لقبول تجليها . وليست تتجلى الملائكة لجميع النفوس كما هو معلوم . فذلك فضل الله يختص به من يشاء . واختصاصه هو إذنه ومشيتته . ثم إن هذا الإذن مبدؤه والأوامر والأحكام . لأن الله يحل الملائكة على النفوس ، لإيحاء مايريد منها . ولهذا قال « مِّنْ كُلِّ أَمْرِ » أى أن الله يظهر الملائكة والروح لرسله عند كل أمر يريد إبلاغه إلى عباده . فيكون الإذن مبتدئاً من الأمر على هذا المعنى .

والأمر ههنا هو الأمر في قوله ^(١) (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) فالكلام في الرسالة والأوامر والأحكام ، لا في شيء آخر سواها . ولهذا قال بعضهم : إن (من) ههنا بمعنى الباء ، أى بكل أمر . ولا حاجة إليه لما قلنا . وإنما عبر بالمضارع في قوله (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ) وقوله (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) مع أن المعنى ماض ، لأن الحديث عن مبدأ نزول القرآن - لوجهين :

الأول : لاستحضار الماضى لعظمته على نحو ما في قوله ^(٢) (وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ) فإن المضارع بعد الماضى يزيد الأمر تصويراً . والثاني : لأن مبدأ النزول كان فيها . ولكن بقية الكتاب وما فيه من تفصيل الأوامر والأحكام كان فيما بعد . فمكانه يشير إلى أن ما ابتدأ فيها يستمر في مستقبل الزمان حتى يكمل الدين . وقوله تعالى « سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » أى أنها كانت ليلة سالمة من كل شر وأذى . والإخبار عنها بالسلم نفسه - وهو الأمن والسلامة - للبيان في أنه لم يشبها كدر ، بل فرج الله فيها عن نبيه كل كربة ، وفتح له فيها سبل الهداية ، فأناله بذلك ما كان يتطلع إليها ، الأيام والشهور الطوال .

تنبيهات :

الأول : قدمنا أن ليلة القدر التى ابتدئ فيها نزول القرآن كانت في رمضان لآية (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) ولا إجماع في تعيين تلك الليلة . بل في صحيح البخارى ^(٣) أنها رفعت . أى رفع العلم بتعيينها . وفي رواية فيه : نسيها أو أنسيها . من قوله صلوات عليه . ولذا رغب في قيام رمضان كله رجاء موافقتها في ليلة منه . نعم الأقوى رواية أنها في العشر الأخير من رمضان لما كان من اهتمامه ﷺ بالاعتكاف فيه وإحياء ليله وإيقاظ أهله . وقد ذهب ابن مسعود والشعبي والحسن وقتادة إلى أنها ليلة أربع وعشرين .

(١) [٤٤ / الدخان / ٥٤] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢١٤] . (٣) أخرجه في : ٣٢ - كتاب فضل ليلة القدر ،

٢ - باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر ، حديث رقم ٤١٩ ، عن أبى سعيد الخدرى .

قال ابن حجر : وحجتهم حديث واثلة أن القرآن نزل لأربع وعشرين من رمضان . وقد اضطربت أقوال السلف فيها . صحابة ومن بعدهم . حتى أنافت على أربعين قولاً .

قال الإمام : ثم الأخبار الصحيحة متضاربة على أنه في شهر رمضان . ولا نعينها من بين لياليه . فقد اختلفت فيها الروايات اختلافا عظيماً . وكتاب الله لم يعينها . وما ورد في الأحاديث من ذكرها ، إنما قصد به حث المؤمنين على إحيائها بالعبادة ، شكر الله تعالى على ما هداهم بهذا الدين الذي ابتدأ الله إفاضته فيهم ، في أنثائها . ولهم أن يعبدوا الله فيها أفراداً وجماعات . فمن رجح عنده خبر في ليلة أحيائها ، ومن أراد أن يوافقها على التحقيق ، فعليه أن يشكر الله بالفراغ إليه بالعبادات في الشهر كله . وهذا هو السر في عدم تعيينها . وتشير إليه آية البقرة فإنها تجعل الشهر كله ظرفاً لنزول القرآن ، ليدكر المؤمنون نعمة الله عليهم فيه . فهي ليلة عبادة وخشوع ، وتذكر لنعمة الحق والدين . فلا تكون ليلة زهو ولهو تتخذ فيها مساجد الله مضامير للرياء ، يتسابق إليها المنافقون . ويحدث أنفسهم بالبعد عنها المخلصون . كما جرى عليه عمل المسلمين في هذه الأيام . فإن كل ما حفظوه من ليلة القدر هو أن تكون لهم فيها ساعة سمر يتحدثون فيها بما لا ينظر الله إليه . ويسمعون شيئاً من كتاب الله لا ينظرون فيه ولا يعتبرون بمعانيه . بل إن أصغوا إليه ، فإنما يصغون لنعمة تاليه . ثم يسمعون من الأقوال ما لم يصح خبره ، ولم يحمد في الآخرين ولا الأولين أثره . ولهم خيالات في ليلة القدر لا تليق بقول الأطفال ، فضلاً عن الراشدين من الرجال . انتهى .

وقال الطبري : إخماء ليلة القدر دليل على كذب من زعم أنه يظهر في تلك الليلة للعيون ، ما لا يظهر في سائر السنة . إذ لو كان ذلك حقاً ، لم يخف على كل من قام ليالي السنة ، فضلاً عن ليالي رمضان .

الثاني : حكى الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) قولاً عن بعض العلماء ؛ أن ليلة القدر خاصة بسنة واحدة وقعت في زمان النبي ﷺ . ولعل مستنده ما صح أنها رفعت . وقد قدمنا معناه . ولذا ذهب الجمهور إلى خلافه . وعندي أن لا تنافي . لأن المراد بالأول هو ليلة نزول

القرآن وما كان فيها من التجلّي الخاص التي انقردت به - وبالثاني أن ما يوافق تلك الليلة من رمضان كل عام ، هي ليلة فيها مزية على غيرها ، بفضل اختصت به دون غيرها . وهذا هو السرّ في قيام رمضان والتماسها في العشر الأواخر منه . أعني إحياء مآثلها من الليالي ، تبركاً وتيمناً وشكراً لله تعالى على تلك النعمة والهداية . فالفائز في ليالي العشر الأخير ، أو في رمضان ، مصادف البتة لما مائل تلك الليلة . لأنها منه قطعاً . وقد باين الإسلام في تفضيل بعض الأوقات بتشريع اتخاذها موسمًا للعبادة ، ما ابتدعه رؤساء الأديان الآخر في تذكاراتهم وجعلها أعياداً ، تصرف ساعاتها للبطالة والزينة واللهو ، مما ينافي حكمة ذكرها . فتأمل الفرق ، واحمد الله على اتباع الحق .

الثالث : قال الإمام : ما يقوله الكثير من الناس من أن الليلة المباركة التي يفرق فيها كل أمر حكيم ، هي ليلة النصف من شعبان ، وأن الأمور التي تفرق فيها هي الأرزاق والأعمار ، وكذلك ما يقولونه من مثل ذلك في ليلة القدر ، فهو من الجراءة على الكلام في الغيب بغير حجة قاطعة . وليس من الجائز لنا أن نعتقد بشيء من ذلك ، ما لم يرد به خبر متواتر عن المعصوم عليه السلام . ومثل ذلك لم يرد ، لاضطرب الروايات ، وضعف أغلبها ، وكذب الكثير منها . ومثلها لا يصح الأخذ به في باب العقائد . ومثل ذلك يقال في بيت العزة ، ونزول القرآن فيه جملة واحدة في تلك الليلة . فإنه لا يجوز أن يدخل في عقائد الدين . لعدم تواتر خبره عن النبي صلى الله عليه وآله . ولا يجوز لنا الأخذ بالظن في عقيدة مثل هذه . وإلا كنا من الذين (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) نعوذ بالله . وقد وقع المسلمون في هذه المصيبة ، مصيبة الخلط بين ما يصح الاعتقاد به من غيب الله ويعدّ من عقائد الدين ، وبين ما يظن به للعمل على فضيلة من الفضائل . فاحذر أن تقع فيها مثلهم . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .